

التحرير والتنوير

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جواباً عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك فهم يعطونهم بأن لا أنعم عليهم بتلك الرفاهية فهم يجيبون بهذا القول إfachاً ما لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم) قبل هذا لا (فأعرضوا فإن الإعراض يقتضي دعوة لشيء) ويفيد هذا المعنى قوله (وظلموا أنفسهم) عقب حكاية قولهم لفأنه أما معطوف على جملة (فقالوا) أي فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك فإن ظلم النفس أطلق كثيراً على الإشراك في القرآن وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق .

ويجوز أن تكون جملة (وظلموا أنفسهم) في موضع الحال والواو واو الحال أي قالوا ذلك وقد ظلموا أنفسهم بالشرك فكان قولهم مقارناً للإشراك .

وعلى الاعتبارين فإن العقاب إنما كان مسبباً بسببين كما هو صريح قوله (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين) إلى قوله (إلا الكفور) .

فالمسبب على الكفر هو استئصالهم وهو مدلول قوله (فجعلناهم أحاديث) كما ستعرفه والمسبب على كفران نعمة تقارب البلاد هو تمزيقهم كل ممزق أي تفريقهم فنظم الكلام جاء على طريقة اللف والنشر المشوش .

ودرج المفسرون على أنهم دعوا إلى ذلك ويعكروا عليه أنهم لم يكونوا مقرين بما يظهر فإن درجنا على أنهم عرفوا إلى ودعوه بهذا الدعاء لأنهم لم يقدرُوا نعمته العظيمة قدرها فسألوا إلى أن تزول تلك القرى العامرة ليسيروا في الفياضي ويحملوا الأزواد من الميرة والشراب .

ثم يحتمل أن يكون أصحاب هذه المقالة ممن كانوا أدركوا حالة تباعد الأسفار في بلادهم قبل أن تؤول إلى تلك الحضارة أو ممن كانوا يسمعون أحوال الأسفار الماضية في بلادهم أو أسفار الأمم البادية فتروك لهم تلك الأحوال وهذا من كفر النعمة الناشئ عن فساد الذوق في إدراك المنافع وأضدادها . ومباعدة بصيغة المفاعلة القائمة مقام همزة التعدية والتضعيف .

فالمعنى : ربنا ابعد بين أسفارنا . وقال النبي A " اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب " .

وقرأه الجمهور (باعد) . وقرأ ابن كثير وابن عمرو (بعد) بفتح الباء وتشديد العين . وقرأه يعقوب وحده (ربنا) بالرفع و (باعد) بفتح العين وفتح الدال بصيغة الماضي على إن الجملة خبر المبتدأ . والمعنى : أنهم تدمروا من ذلك العمران واستقلوه وطلبوا أن

تزداد البلاد قريبا وذلك من بطر النعمة بطلب ما يتعذر حينئذ .

والتركيب يعطي معنى (أجل البعد بين أسفارنا) . ولما كانت (بين) تقتضي أشياء تعين أن المعنى : باعد بين السفر والسفر من أسفارنا . ومعنى ذلك إبعاد المراحل لأن كل مرحلة تعتبر سفرا أي باعد بين مراحل أسفارنا .

العيش بحبوة وفي الجنات في كانوا الذين أولئك جعلنا (أحاديث فجعلناهم) ومعنى A E أحاديث أي لم يبق منهم أحد فصار وجودهم في الأخبار والقصص وأبادهم [] حين تفرقوا بعد سيل العرم فكان ذلك مسرعا فيهم بالفناء بالتغرب في الأرض والفاقة وتسلط العوادي عليهم في الطرقات كما ستعمله . وفعل الجعل يقتضي تغييرا ولما علق بذواتهم انقلبت من ذوات مشاهدة إلى كونها أخبارا مسموعة . والمعنى : انهم هلكوا وتحدث الناس بهم . وهذا نظير قولهم : دخلوا في خبر كان وإلا فإن الحديث لا يخلوا منها أحد ولا جماعة . وقد يكون في المدح كقوله : .

هاذي قبورهم وتلك قصورهم ... وحديثهم مستودع الأوراق أو أريد : فجعلناهم أحاديث اعتبار وموعظة أي فأصبناهم بأمر غريب من شأنه أن يتحدث به الناس فيكون " أحاديث " موصوفا بصفة مقدرة دل عليها السياق مثل قوله تعالى (يأخذ كل سفينة غصبا) أي كل سفينة صالحة بقرينة قوله (فأردت أن أعيبها) .

والتمزيق : تقطيع الثوب قطعا استعير هنا للتمزيق تشبيها لافريق جامعة القوم شذر مذر بتمزيق الثوب قطعا .

و (كل) منصوب على المفعولية المطلقة لأنه بمعنى الممزق كله فاكاسب معنى المفعولية المطلقة من إضافته إلى المصدر .

ومعنى (كل) كثيرة التمزيق لأن " كلا " ترد كثيرا بمعنى الكثير لا بمعنى الجميع قال تعالى (ولو جاءتهم كل آية) وقال النابغة : .

" بها كل ذبال